قصة مصرية

أبو عـــرب

بقلم الأستاذ محمود بك تيمور

في خيمة حقيرة من الشعر ، قريبة من عزبة عماد بك ، يعيش «سليمان ريده» وزوجته وأولاده، وهم قوم من العربان الرحل ، يكسبون عيشهم من تربية الأغنام، وينتقلون بها من مكان إلى آخر طلباً للمرعى . وسليمان المذكور ـ ويسميه الناس (أبو عرب) احتراماً له وخشية منه ـ رجل عملاق الجسم عريض المنكبين، له وجه جاف مشدود الجلدة، إذا سار ملتحفاً بشاله الأبيض الكبير خلته ناقة تتهادى في سيرها ، وإذا سمعته يغني غناءه ذا الروي الواحد ـ وهو يدخن، التماك في قصبته ـ خيل إليك أنك على مقربة من ذئب يعوي : سريع الغضب إذا استفزه أحد هاج هياج الثور الوحش، سريع الرضا إذا لوطف أصبح كالحمل الوديع ، كله بشاشة وطيبة وإخلاص .

يحب أولاده الستة حباً عظيماً ، فكأنه أم رءوم تغمرهم بحنانها الدائم. ولكلبه « ذهب » في قلبه مكانة أحد أولاده ، فقد التقطه من الطريق رضيعاً يكاد يهلك من الجوع، وآواه وعنى به حتى كبر وترعرع ، وأصبح اليوم حامي قطيعه وحارس خيمته . وهو كلب أسود غزير الشعر مخيف الهيئة ، تأثرت أخلاقه بأخلاق سيده فاكتسب منه الشر في مواطن الشر ، والحلم في مواطن الحلم .

وكان عماد بك صاحب الضيعة يقيم مع زوجته وابنه الوحيد «حامد» في بيته القديم الذي يسميه الفلاحون «القصر» . وحامد غلام في العاشرة مدلل محبوب من والديه حباً يقرب من العبادة ، يقضي وقته مع خادمه مبروك يصطادان العصافير والسمك أو يلعبان على التلال التي على حافة الترعة ، يقذفان الكلاب بالطوب . وقد قامت بينه وبين « ذهب » خصومة كبيرة نشأت عن تحرش الغلام بالكلب ، فأضمر كل منهما لصاحبه العداوة ، فإذا أحس « ذهب » بوجود حامد ـ ولو على مسافة بعيدة منه ـ نشر أذنيه باهتمام، وجعل يشم الهواء وهو ينظر إلى جهة الغلام نظرة شزراء، مكشراً عن أنيابه، متعفراً للهجوم ، ثم يبدأ ينبح نباحاً عالياً ، وإذا لمح حامد « ذهباً » وكان في رفقة من أتباعه ، أمطر الكلب وابلا من الطوب واحتمى بمن معه إذا هجم الكلب عليه .

وخرج حامد ذات يوم ومعه مبروك، وقصدا التلال يلعبان فوقها كالمعتاد ، وكانا وحيدين في هذا الوقت ، وصادف أن جاء « ذهب » ليشرب من الترعة ، وبينما هو منهمك في الشرب

إذ رماه حامد بطوبة حادة أدمت رأسه ، فقفز متنمراً يبحث عن الجانى وقد أحس بأنه لن يكون غير حامد . وكان حامد محتمياً مع خادمه فوق تل عال صعب المرتقى، وعرف الكلب مكان الغلام ، فهجم صاعداً على التل وهو ينبح نباحاً جافاً متقطعاً غير مبال بوابل الطوب الذى ينهال عليه بشدة . وأحس الغلام بالخطر ، فوهنت عزيمته، وتخاذلت قواه ، وجعل يصيح بصوت مخنوق يستنجد بمبروك ؛ ولكن مبروكاً أطلق ساقيه للريح ناجياً بنفسه . ووجد « ذهب » الميدان أمامه خالياً، وقد زاده هذا الانتصار قوة وإقداماً ، وأوشك أن يصل إلى قمة التل ، ولم يعد يفصله عن الغلام غير مسافة قصيرة ؛ ورأى حامد الكلب يقترب منه وعيناه تقدحان كالنار، وشعره قائم كالشوك ، فارتجف ؛ ولكنه أحس بقوة غريبة تحل فيه ، فوقف مستبسلا وقفة الجندى فى ساعة الخطر ، ووقف الكلب أيضاً يحدج عدوه بشرر عينيه، وهو يأخذ العدة لهجمة فاصلة. ومضت لحظة والعدوان واقفان أمام بعضهما لا يتحركان كأنهما تمثالان أودع فيهما المثال أقوى معانى التحفز للشر . وأخيراً هجم الكلب هجمته الأخيرة ،ولكن الغلام كان قد سبقه فرماه بحجر شج رأسه ،وترنح « ذهب » ثم تكفى على عقبيه وهو يحاول النهوض والهجوم من جديد ،وقد بدأ الدم الغائر يسيل على وجهه ويسدل ستاراً أحمر أمام عينيه ، واختل توازنه فانقلب يتمرغ على التل متدحرجاً من أعلاه إلى أسفله.

هناك سكتت حركته سكوتها الأخير ، وحدق الغلام بذهول فى جثة الكلب ثم أخذ يتتبع بنظره طريق الدم المرسوم على التل من قمته إلى قاعدته فخاله بحراً من الدماء أو لهيباً من النار، وشعر دفعة واحدة بتخاذل غريب، فجلس على الأرض يرتجف ،وعلت وجهه صفرة الأموات.

وسمع أبو عرب ندباً وعويلا منبعثين من خيمته وهو عائد إليها ، فهاله الأمر وتوقع مصابا ودخل الخيمة فى عجلة وهو يسأل ما الخبر . . . ؟فسكت الجميع وأطرقوا برءوسهم .

ودار أبو عرب بنظره على الموجودين فوجد عددهم كاملا ، فهرع إلى الخارج حيث قطيعه يرعى فلم يجد ما ينقصه ، ولكنه أدرك أن «ذهباً» غير موجود . فعاد إلى الخيمة وصاح فى الجميع :

— أين «ذهب» ؟

فلم يجبه أحد .

— إذاً هو الذى تندبونه .

فأومأ إليه أحد أولاده بنعم .

— ولكن كيف مات ؟ أمقتولا أم حتف أنفه ؟

فتقدمت إليه زوجته فى هوادة، وأخذت تروى له حادثة مصرع الكلب ، وهو يستمع

إليها فى سكون ووجوم، ثم مالبث أن اربد وجهه وأخذ يعلوه الغضب شيئاً فشيئاً، فما أن أتمت كلامها حتى صرخ قائلا :

— أقسم برأس أبى ثلاثاً لأقتلنه ، وبنفس الطريقة التى قتل بها « ذهب » .

ومضت بضعة أشهر ،ونسى الناس حادثة الكلب. وأخذ أبوعرب يحوم حول قصر «عماد بك »فى الخفاء كما جن الليل وانتشر على الضيعة الصمت والسبات، كما يحوم الذئب حول فريسته المطمئنة يتحين الفرصة لتنفيذ ما أقسم عليه .

وفى ليلة ماخرج من خيمته ووجهته قصر عماد بك ، وهوملثم الوجه بشاله الكبير، يحمل فى عبه كمية من الأحجار المسننة الغليظة كانت تثقل خطاه فى سيره ، وسار متسللا بحذر ، ولما دنا من السور اعتلاه بمهارة ، وهبط إلى الحديقة فى خفة الهرة ، وتسلق شجرة كثة الأغصان كمن بين فروعها ، ومن ثم جعل يراقب حجرة الغلام بعينى الصقر الجشع ؛ وكانت الشجرة على مقربة من نافذة الغرفة .

ومضت ساعة ، وحامد يدخل حجرته لاعباً ، ثم يتركها إلى ردهة المنزل ، لا يستقر له قرار فى مكان واحد . فجعل أبو عرب يداعب الطوب فى عبه مداعبة عصبية .

وأخيراً جاءت الأم بابنها، وحملته إلى السرير ووضعته فيه، ثم أشارت له أن ينام، فأمسك الغلام برقبتها وانهال عليها يقبلها ويحتضنها ، وهو يهمس فى أذنها ويداعبها ، فأخذته بين ذراعيها تضمه وتقبله وتحدق النظر إليه فى حنو وعبادة ، وكانت إذا ما انتهت مرة عادت تحضنه وتقبله من جديد .

واعتدل أبو عرب فى جلسته وجعل يراقبها باهتمام ، واندفعت الأم تلاعب طفلها فى شغف، وتصغى إلى ضحكاته المرحة الساذجة كما يصغى الفنان إلى أعذب ألحانه وأشهاها ، ثم قامت وهى محتضنة إياه ، وأخذت تطوف الحجرة بخطى هادئة، وتغنى له بصوت حنون، والطفل متعلق برقبتها مغمض العينين فى طمأنينة عذبة يرد على أغانيها ويستزيدها . . . واعترى أبوعرب وجوم غريب وأحس بالضيق يغزو صدره ، وسقط من يده حجر إلى الأرض بدون أن يشعر بسقوطه . . . وأخيراً وقد أحست الأم بأن وحيدها قد نام، اقتربت فى سكون نحو السرير وأرقدته عليه ، ثم غطته وطبعت على جبينه قبلة هادئة، وخرجت على أطراف أصابعها . . .

ونظر أبو عرب طويلا إلى الطفل وهو نائم يبتسم فى هدوء وغبطة كأنه ملاك صغير، فابتسم فى ارتباك واضطراب كأنه يجيب على ابتسامة الطفل . وبغتة شعر كأن حنجراً يطعنه فى قلبه فهبط إلى الأرض مسرعاً ، وأخذ يعدو فى الطريق عائداً إلى خيمته وكله اشمئزاز وكره لنفسه، وما أن وصل إلى الخيمة حتى هرع إلى ولده الذى فى عمر حامد، وأخذه بين ذراعيه، وجعل يضمه ويقبله بشغف والدموع تسح من عينيه ...

محمود تيمور